مـن كـل حـدب وصوب

ادريس الخوري

عبر لوح الزجاج العريض كشاشة سينمائية (حين تكون مثلا قادما من بعيد جنب الرصيف الايمن والايسر) ، ومن الباب المفتوح دوما على الشارع الكبير ، الضاج بالحركة ، والباب الآخر المغلق دوما على الـدرب التجاري الانيق ، داخل المقهى نفسها ،تقف الجماعة المعروفة جنب الكونطوار مولية ظهورها الى النادل الذي يروح ويجيء ، والى القنينات الاخرى الموضوعـة بعناية داخل المربعات الخشبية والمستطيلة : بيرات ، قنينات ويسكي ، قنينـات نبيـذ !

بلا وعي ، وعبر لوح الزجاج العريض ، يحدقون جميعا طويلاً في الشارع المتحرك والناس المتحركين والبنايات العالية الجامدة والسيارات المتحركة . عن يمينهم ، داخل المقهى ، درب ساكن ، عن يسارهم شارع متحرك ، عبر الزجاج أيضا سيارات قادمة : حافلات ، رجال ، نساء ، أطفال ، فتيات ، حديقة ، أشجـار ، بناية المسرح البلدي الضخمة .

يتحرك أحدهم يمينا أو شمالا ليلتقط شيئه الخاص به : فنجان قهوة أو كاس بيرة . وعندما يخرجون الى الشارع بشكل جماعي يتعاملون مع الناس والاشياء تعاملا ساخرا . برغبة لا ارادية يكتشفون أن اقدامهم الرخوة تنقلهم من درب الى درب ومن زاوية لاخرى . هنا يتواجدون ، هنا يحسون انهـم يمتلكون هذا المكان وليس أحد آخر غيرهم .

ها هم يربطون علاقات خاصة وعامة ، حقيقية ومزيفة ، يذرعون المقهى من أمام ومن خلف ويحدقون طويلا في المرايا . يذهبون الى المرحاض ثـم يعودون ليجلسوا في المكان الخلفي للمقهى . يتحدثون مع خليط من البشر مشعث الرؤوس ومع فتيات شاردات غائبات عن انفسهن فينهضون بسرعـة ليعودوا من حيث أتوا ، الى الطابوريهات أو يقفون كالمسامير ، لكنهـم لا يغادرون المقهى الا وفي أيديهم صيد الليلة . فتاة أو فتاتان أو ثلاث فتيات .

ففي المكان الخلفي حين يتواجدون مع خليط من البشر قادم من آفاق بعيدة ، يملك الجميع هنا حرية غير محدودة . انهم يدخنون الكيف والهاش ويداعبون الفتيات الداخلات الى المقهى الخارجات منها ، فيما مؤخراتهم مدلاة فوق الكراسي الجلدية الطويلة شبه الواطئة . كل واحد يشكل عالما خاصا به ، لكنهم يلتقون في كثير من الاهداف والرغبات : لا وعي بالزمن ، لا وعي بالذات ، لا وعي بالآخرين

يتكئون الآن بمرافقهم على سطح الكونطوار يتحدثون عن أشيائهم الخاصة والعامة . بين لحظة واخرى يلتفت أحدهم الى شيئه الخاص يحتسيه : خارج هذه الدائرة الجهنمية الصغرى تحدث أشياء هامة لا يعرفونها تماما ، تفاعلات وتغيرات .

ينغل المكان بدود كثير يخرج من هنا وهناك يرتفع الدخان الى السقف ويهجم قليل من الهواء حين يفتح أحدهم الباب المحاذي للدرب التجاري الانيق وعندما يغلق الباب يظل الجميع يراقب الجميع . يشربون البيرة ، يحتسون القهوة ، يحدقون في بعضهم ، يدخنون ، يثرثرون مع اشخاص جالسين قربهم او عن طريق المرآة المستطيلة المقابلة لهم ، يغمزون لبعضهم غمزات ذات معنى ويفهم الآخرون بسرعة ما معنى ذلك ثم يعودون الى الاتكاء من جديد على الكونطوار . كان الزمن سائبا وكانوا يفتشون المطلق . هل يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم الرخوة ؟ كانوا غيابا كليا عن العالم .

قضيـــة :

دخلت الفتاة المجهولة الاسم والهوية من الباب الخلفي للمقهى ومسحت الرواد الواقفين والجالسين بعينيها البيضاويتين ، كانت الآن علامة استفهام أمام الجميع . التفت أحدهم جهة الباب فرأى الفتاة واقفة . ها هي ، تلك التي كانت بالامس هنا ، قال أحدهم والتفت زميلاه اللذان كانا مشغولين بالتحديق في الشارع عبر الزجاج العريض .

يدخن الاول فينتشر الدخان حول وجهه الحليق دوائر دوائر زرقاء وملتوية ، يشرب الثاني بيرته وقد بقي نصفها فقط تعلوه فقاعات صابونية بيضاء ، يدخن الثالث-ويشوف . وفي الخارج تزعق السيارات والحافلات .

ودون مقدمات ضروية تقدمت الفتاة نحو الشبان الثلاثة وزعقت في وجوههم كبوق سيارة متحشرج وقالت بهستيرية : أريد بلودجين وأريد دجاكيط وغوفالا مثلكم ثم أمشي حافية !

- في يدك

قالت الفتاة : أريد ان أشتري قرعة جوني والكبير وقليلا من الكيف وامشي عارية .

ـ في يـدك .

قال أحدهم ، ولكن هل تعرفين من هو جوني والكير ؟

ردت الفتـاة :

ـ نعم ، انه ضابط أمريكي بالقاعدة الجوية بالقنيطرة !

ضحكوا جميعا ومسحت الفتاة المجلببة بصاقها المتناثر كصابون حول شفتيها المتدليتين بكم جلابتها الايمن وأضافت :

ـ ادي نصف ثمن القرعة والباقي من عندكم .

قال أحدهم : هات ما عندك ثم اذهبي وايت بالباقي ..

ـ لا

عندها ضحكت الجماعة ضحكا متناثرا بينما التفت بعضهم الى شيئه الخاص . وهكذا دخل بعض الرواد وخرج بعض الرواد وجلس البعض قـرب بعض وابتعد البعض عن بعض وجلس البعض قرب الحاجز ـ النافذة المربعة بينما ذهب البعض الى المرحاض ووقف البعض خارج الباب الخلفي يتفحص المارة بأعين بوليسية ! وقف البعض جنب الكونطوار في حين يـرى البعض من الداخل بعضا آخر من الخارج مشكلا جماعة صغيرة مشككة تتحدث عـن أشيائها الخاصة . مرت فتاة جميلة فرآها البعض من الداخل في حين اشتهاها البعض من الخارج وبجنب الرصيف المقابل للمقهى حط عصفور صغيـر ثـم طار بسرعة لكن الفتاة المجلببة التي تقف الآن لم يهتم بها أحد ولم تهتم هي بأي أحد بل دخلت ولم تحي أى أحد فقط لترى نفسها في المرآة المستطيلـة التي انعكست عليها وجوه الشبان الثلاثة الواقفين ثم خرجت من الباب الخلفي ثم عادت تتهادى .

قالت الفتاة : ها أنـا الآن .

ـ ماذا تفعليـن ؟

ـ أتسكع في الشوارع والمقاهي علني أجد رجلا صالحا . ضحك أحدهم لهذا التعبير وقال احدهم :

ـ اذهبي عند مولاي بوشعيب الرداد ، انه ولي صالح !

ـ انتم تسخرون مني

ـ لا ، نحن فقط نتعرف عليك

انتفضت الفتاة ، سأذهب

ـ الـى أيـن ؟

ـ الى السينمـا

ـ لمـاذا ؟

ـ عند صديقة تشتغل مضيفة

اقترح احدهم : هل تذهبين معنا ؟
ـ الى أين ؟
ـ الى الـدار
ـ لا ، اخـاف
ـ ستشربين جونى والكير .
ـ لا أحب المريكان ، أحب فريد الاطرش !
وابتسمت لنفسها وقالت ساعـود .

من نفس الباب الذي دخلت خرجت . منه : مباشرة يتشكل درب انيـق لطبقة جديدة وغنية ، درب ذو واجهات متعددة كـرواده . واثنـاء سيرهـا المضطرب كانت رحمة ترى نفسها من خلال الواجهات الانيقة والمرايا الداخلية حيث ينعكس وجهها الاصفر على الاشياء المعروضة من الداخل ، أشياء نسائية جميلة . أحست رحمة بالفرح وأحست رحمة بالحزن ، وقفت قليلا عند بعض المعروضات النسائيـة . لم لا ؟ فكرت وسارت بضع خطوات غير محسوبة ورأت نفسها ، مرة أخرى ، في كثير من الواجهات الزجاجية . تحركت ثـم اختفت بين الازقة والمارة والى المقهى يدخل البعض من الباب الخلفي يخرج من الباب الرئيسي يجلس البعض قرب البعض دون أن يطلب شيئا ينظـر البعض الى مؤخرات الفتيات الفائضة على الطابوريهات يغادر المقهى بـلا جدوى ثم يدخل جنس آخر . كانت المقهى خلية نحل ، طنين هنا وطنين هناك. ومن المقاعد الخلفية تاتي رائحة مخدرة لتنعش الرواد الواقفين الجالسين معا . كانت رحمة تسير الآن في شوارع وازقة الدار البيضاء بلا هدى وكانت الجماعة تحدق عبر لوح الزجاج العريض كما لو كانت تشاهد شريطـا سينمائيـا في الخـارج تحدث أشياء ومتغيـرات .

اعـــلان :

كان عمري ثماني سنوات ، كان عمري ، أين عمرى ؟ كنت في بيتنـا وفي يوم من الايام توفيت أمي وبقيت أنا مشردة . تزوج أبي من امرأة اخرى شريرة وخرجت من مدينتي الصغيرة وذهبت الى العاصمة حيث أقمت عند عائلة فاسية مربية وخدامة . وفي يوم من الايام رحلت تلك العائلة الغنية الى اكادير فذهبت معها وكان عمري آنذاك 13 عاما . بقيت هناك عاما كاملا ثـم رجعت الى العاصمة لان العمل مع تلك العائلة جد مرهق . وهناك كبرت الى أن أصبحت مراهقـة .

قال لي أبي ذات يوم عند ما زرتهم اذا لم تتزوجي بالمعطى فانت لست ابنتي لا في الدنيا ولا في الآخرة . يومها تركت أبي وفي يوم من الايام ذهبت عند أختي في أكادير فأخذ زوجها يقسو علي فعدت الى العاصمة . أنا الآن في

العـاصمـة :

تتذكر رحمة : وعند عائلة أخرى اشتغلت خدامة ومربية قرابـة نصف سنة لكنني سرعان ما تعبت ، كانوا يعطونني اجرا ضئيلا بالاضافـة الـى الماكلا الشايطة عليهم ، كنت أنام في الكوزينة وكان رب العائلة يراودني عن نفسي وغير ما مرة تبعني الى الكوزينا يريد القبض علي من مؤخرتي كنـت أكرهه لانه كان ذا كرش كبيرة مثل امرأة حامل . كان يقول لي بكل وقاحة : هل أنت افضل من كل الخادمات اللواتي أتيتهن بمحض ارادتهن ؟ وكنت أقول له يا سيدي أنا لست عبدة لك ، أنا فقط امرأة درويشة ، خليني عليك . وهكذا هربت من هذه العائلة متوجهة الى الدار البيضاء حيث اشتغلـت في معمـل للنسيج ، وهناك تعرفت على شاب جميل ودرويش مثلي وكونت معه علاقة عاطفية انتهت باغتصابي منه ثم اعتذر لي عن عدم استطاعته الزواج منـي لانه لا يعرف كيف سيكون مصيره في الدار البيضاء بعد اغلاق كثير من المعامل وعاد الى عائلته في أزمور . هو الآن في أزمور .

سكتت رحمة عن كلامها المباح وتجرعت قليلا من ذلك السائل الاحمر وطلبت سيجارة محشوة بالكيف وألحت . هاك يا ولية ، قال احدهم ، تناولت رحمة السيجارة ووضعتها بين شفتيها المتدليتين .

سألها الرحموني : ماذ تفعلين هنا بالضبط ؟ أجابت رحمة :

ـ أتشرد فقط واكتشف المدينة واكتشفكم . وأنتم ؟

ـ نسهر حتى الصباح وننام حتى الظهر ونخرج في المساء ونعتمد على الناس لجـواد مثلك .

قالت رحمة والدخان يتطاير من فمها :

ـ انني كما ترى فقيرة ، لا حول لي ولا قوة

ـ ولو ... بامكانك أن تعبري لنا شيئا ما ، نحن ايضا لسنا من هـذه المدينة ، اننا قوم اغراب . انا فنان ، وهذا شاعر ، والثالث لا شيء . هل تقيمين معنا بصفة دائمـة ؟

أجابت رحمة : ماذا تفعلـون ؟

رد أحدهم : نحلم كثيرا ونعتمد على الله وعلى لجواد مثلك . اننا فقط نستـرزق الله .

تبتسم رحمة بخبث وتتجرع الجماعة الكؤوس وتتبادل السجائر المحشوة وتنظر الى الفتاة التي تغرس نظراتها المضطربة فيهم وفي الغرفة وكل أشياء الغرفة . هل هم حقيقيون أم لا ؟ فكرت رحمة وقالت :

ـ ماذا يعني انكم لا تفعلون شيئا بالمرة ؟

اجاب الرحموني : يعني أنه لا يوجد شيء يمكن فعله في هذه المدينة، ومع

الايام تفرض الظروف على المرء ان ينتهي الى أن يفعل أي شيء ، حتى ولو كان ضـد نفسـه .

ـ مثلا ، قالت رحمـة

ـ أنت تعرفين

ضحكت رحمة وقالت يا لطيف ومدت ما تبقى من السيجارة المحشوة للرحموني الذي تلقفها بسرعة ثم دخن منها وناولها لزميله .

قالت رحمة : انا جائعـة

أجاب الرحموني : نحن كذلك ، سوف تاكلين

ألحت رحمة : أريد أن آكل الآن

ـ من بعد ، اشربي أولا ثم دخني معنا

ـ أخاف ، أخاف أن أدوخ

ـ لا ، مثلك لا يدوخ ، مثلك يدوخ الآخرين !

وقهقهة الرحموني قهقهة عالية فتبعه زميلاه . قالت رحمة :

ـ اذن ، هات كاسا أخرى وعمر لي شي واحد من عندك

ـ في يـدك !

كانت السيجارة في بداية اشتعالها . ملأ الرحموني منها خياشيمه ثـم مدها لرحمة . عندها ، ومن فرط النشوة ، قامت وخلعت جلابتها السوداء ذات البقع الزيتية فبدت للجماعة اكثر اغراء مما كانت عليه من قبل في المقهـى . أبتها المراة ، قالت نظراتهم اليها ، ستبقين معنا هنا كصديقة وخادمة وتحت الطلب دوما كلما دعت الحاجة الى ذلك ، احيانا تخلو المدينة من النساء فلا نجد أين نفرغ رغباتنا .

ـ لماذا لا تظلين معنا ؟ سالها الرحموني ،

نطقت رحمة : انه يناديني

ـ مـن ؟

ـ مولاي بوشعيب الرداد !

انفجرت الجماعة بالضحك وسالوها : هل نزيد لـك ؟ تردد رحمـة في البداية وقالت انها قد بدأت تحس غليانا في الدماغ وتخشى ان تسقط بسرعة .

ـ لا تخافي ، قال الرحموني ، نحن معك

ـ والله ؟

ـ ما عارت ...

ـ أنتم قـوم كافـرون

ـ هكذا يقولون عنا في التلفزيون

كانت قهقهاتهم قد شكلت صوتا نشازا علا الى السقف .

يخرج صوتهم من النوافذ في الطابق الارضي ويرتفع كدخان كثيف الى أعلى العمارة .

تناولت رحمة كأسها وأعادته بسرعة الى المائدة المستديرة .

كانت يدها رخوة مثل دودة !

سألتهم : أين المرحاض ؟

ـ هناك الى اليسار ، لكن الماء غير موجود

وعندما قامت ، قامت بتثاقل حتى أوشكت أن تسقط وأعطتهم ظهرها فبرزت مؤخرتها . كانت رحمة ، وهي تحت الدفينة ، أكثر اغراء : ردفان متلاصقان متناسقان أثناء المشي. في البداية اشتهاها الرحموني لنفسه وهكذا تبادل نظرات ذات معنى مع زميليه فغمزوا لبعضهم : **عظيمة** . وحين عادت من المرحاض طلبت كأسا أخرى وسيجارة محشوة أخرى وبدأت تتحدث عن الحب وعن فريد الاطرش . قامت ترقص وتنحني لتقبل كل واحد من الجماعة الذين تخيل كل واحد منهم أنه يضاجعها . جلست رحمة وطلبت كأسا أخرى وحقها من سيجارة أخرى واتكأت على مسند مدسم وأحست أنها غير موجودة نهائيا في هذا المكان . كانت رحمة تختفي عن العالم .

قال الرحموني : داخت

قالت رحمة : أين أنا ؟

قالوا : في الجنة

عندما اخترقت ضحكاتهم الهستيرية السقف لتنفذ الى الغرف الاخرى العلوية . كان الليل ينسحب .

قال الرحموني : أنت هنا ، معنا ، في هذه الغرفة . انك هنا . وبدأت رحمة تتأوه مثل بقرة وتذكر الله بصوت مرتفع . قالت :

ـ ألست في الكوميسارية ؟ وسكتوا . وفيما استمرت رحمة تتأوه وتذكر الله كانت الجماعة مستمرة في الشرب والتدخين ورؤية هذا الكائن البشري الغريب الممتلىء باللحم وبالرغبة . انقلبت رحمة الى اليسار مثل حمار وزحفت بكلتا يديها ورجليها نحو السداري واستمرت في التأوه . بدت رحمة للجماعة بقرة مريضة بحاجة الى دواء وتخيلت أنها تسافر الى عوالم أخرى . كانت تهبط وترتفع ثم تهبط وترتفع . تفتح عينيها المتعبتين **فترى** الشبان الثلاثة بعيدين عنها جدا وأن بينهم وبينها كرات مستديرة من الضباب وأن الغرفة تدور وتدور وأن البحر قريب وكذلك طيور عوا وأن السماء كذلك قريبة. لقد اشتعل الرأس ، الله يا مولانا الله ... كانت رحمة تهذي ، وبالتدريج بدأت تفقد التواصل مع ذاتها ومع الآخرين الذين لا يزالون يدخنون ويشربون .

التواصل مع ذاتها وهذا المكان . كانت رحمة تتنفس بصعوبة أكثر فيسمع زفيرها كحيوان جريح !

ـ تريدين الماء ؟ سألها الرحموني

ـ أريد ماءكم ، أحب ملوحة البحر

ـ نحن بحر

ـ أريد مد كم لاجزركم ، أريد أن تكسحوا في كل شيء . أنا غابة محروقة. لقد دخت .

ـ نحن معك

ومن فرط الضحك انقلب الرحموني على قفاه وضرب كفا بأخرى واستمر في الشرب . كانت رحمة تقول شيئا ما .

قال زميلاه : نغطيها حتى الصباح

ـ لقد داخت

ـ لكنها لم تدخن كثيرا .

قال الرحموني : هذه المرأة قابلة للحرث . سنحرثها لتنبت لنا نباتا طيبا .

قالت رحمة : اني أسمعكم مع ذلك ، أنتم جيل عقيم .

نطق أحدهم : هل تحبلين بجيل آخر ؟

ـ لا أدري ، ومع ذلك فان في بطني جنينا يتركل

كان لسانها متثاقلا . ثم أضافت : أما أنا فقد انتهيت ، وبقيت ممدة على السداري فيما فقدت التواصل معهم نهائيا .

اقترح الرحموني : هل نرميها الى الخارج ؟

رد زميله : لا ، سوف يكتشفنا البوليس

ـ ما العمل اذن ؟

ـ تبقى هنا حتى الصباح حتى تغادرنا من تلقاء نفسها .

قال الرحموني : واذا ماتت ؟ اننا لا نعرفها جيدا .

ـ انها تعرفنا جيدا .

قال الثالث : أما أنا فماشي شغلي ، أريد أن اضاجعها .

رد الرحموني : انها لك ، أخشى أن تكون مريضة بالسفيليس .

ـ لقد أصبت به عدة مرات . كلنا مرضى بالسفيليس !

كانت رحمة الآن تشخر .

هم وحدهم يشربون ويدخنون . ضوء الغرفة جد قوي والدخان يشكل ضبابا كثيفا . كانت الغرفة سفينة ، أتت الجماعة على ما تبقى من سجائر وزجاجات وكيف ولم تفكر قط في الاكل . من ياكل لا يستمتع باللحظة ، قال

أحدهم ، الاكل هو نهاية اللحظة . ومع الاستمرار والذوبان في اللحظة بدأ الوهن يدب الى جفونهم وعظامهم ومفاصلهم . كان بعضهم يتحدث الى نفسه ويتوهم أنه يتحدث الى الآخر زميله ، لكن الآخر غائب . دخل الدخان الرئات كلها والاعين كلها والافواه كلها ، كانوا جميعا دخانا .

قاموا وقعدوا قاموا وقعدوا ذهبوا الى المرحاض عادوا من المرحاض تحدثوا الى أنفسهم وتوهموا أنهم يتحدثون الى بعضهم ، خاطبوا كائنات غير موجودة واشتهوا امراة أخرى غير رحمة التي ترقد الآن بينهم ، صاحوا : هل بقي شيء حاجة من ذاك الشيء ، قاموا فقعدوا قاموا فقعدوا ذهبوا الى المرحاض عادوا من المرحاض تمططوا من تلقاء أنفسهم وارتمى كل منهم في ركنه يلباسه الكامل محدقين في سقف الغرفة دائخين من فرط النشوة مشتهين امرأة أخرى غير رحمة راغبين في سجائر أخرى متلهفين على كويفة أخرى . لقد مضى القسم الاول من الليل جاء القسم الاول من الصباح بينما يزحف الفجر رويدا رويدا .

لا أحد يريد رحمة الآن لكن رحمة تريدهم ثلاثتهم . كانت رحمة غائبة وحاضرة ، كانوا هم غائبين . الفضاء دخان ، الممر الذي يؤدي الى المرحاض، المرحاض هو نفسه ، السقف ، الرئات كلها ، الاعين كلها ، الافواه كلها .

في الزاوية اليسرى من الغرفة كتب ومجلات فرنسية وعربية ، أسطوانات كبيرة وصغيرة . سيبقى الضوء مشعولا حتى الصباح . كان شخيرهم يعلو فضاء الغرفة .

عند الظهيرة استيقظوا ولم يجدوا رحمة . أين رحمة ؟ كانت الأسئلة ترفرف في فضاء الغرفة .

ادريس الخوري

1975